البحث الحقلي ودوره في إثراء وتطوير النظريـة العلمية حالتي الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا

بقلم
د/ مختار رحاب (*)

ملخص

من وظائف النظرية في مجال العلم توجيه العمليات الذهنية وكذا البحثية إلى القيام بعمليات اكتشاف وابتكار وإبداع جديدة، كما تؤدي كذلك إلى تنمية الملكات العقلية للباحثين، وقد يكون الارتباط بين النظرية والبحث الامبريقي وثيقا فكلاهما عنصر أساسي في عملية تراكم المعرفة ونمو العلم وتطوره، كما قد يحصل تباعد وانقسام بين الأمرين في بعض المجالات والأوقات. ولإبراز الدور الذي يؤديه البحث الامبريقي في إثراء وتطوير النظرية، قمنا بانجاز هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: البحث الحقلي، النظرية العلمية، أنثروبولوجيا، سوسيولوجيا.

المقدمة

إن طبيعة المعرفة العلمية تشتق من العلم كعمليات إدراكية تشكل مجتمعة نسقا إدراكيا، والعلم هو تلك المعرفة المنظمة التي توصل إليها الإنسان باستخدام أساليب أو مناهج معينة هي المناهج العلمية، ونتائج الأبحاث العلمية غالبا ما تكون تراكمية مما يزيد من عمليات الابتكار العلمي الذي يساعد الإنسان على تحقيق التعامل السليم مع بيئته الطبيعية والاجتماعية.

لقد كان ظهور النظرية لأول مرة من خلال الأبحاث التطبيقية التي أجريت في مجال العلوم الطبيعية، وكانت قد ظهرت في بداية الأمر على شكل اصطلاحات أساسية، ثم طرأ أن بدأت تتحدد العلاقة في مرحلة لاحقة بين الوحدات الأساسية، وهو ما ساعد على الاستنباط والتوصل لبعض الاستنتاجات، وفي مرحلة ثالثة تطور الأمر إلى القدرة على إخضاع

(*) أستاذ محاضر بقسم علم الاجتماع ـ جامعة المسيلة.

الاستنتاجات لعملية الملاحظة الواقعية.

وبلا شك أن من وظائف النظرية في مجال العلم توجيه العمليات الذهنية وكذا البحثية إلى القيام بعمليات اكتشاف وابتكار وإبداع جديدة، كما تؤدي كذلك إلى تنمية الملكات العقلية للباحثين خصوصا على مستوى الأبحاث النظرية والمجردة، وغالبا ما تساعد النظرية عملية التفكير والبحث للوصول إلى نتائج ذات فائدة في حياة الإنسان والمجتمع، وفي هذا الصدد يحضرنا قول خبير دراسة التنظيم بيتر درينكر" Peter Drunker" حيث يرى أنه ليس هناك أمر علمي وعملي يشابه نظرية علمية جيدة، فالنظرية التي يتم اعتمادها لها توجيهان الأول نحو ما يستوجب فعله، والآخر حول ما يمكننا فعله، وأفضل الطرق التي توصلنا إلى النجاح.

و في مجال العلوم الاجتماعية تقوم النظرية بتنشيط البحث الاجتماعي وتفعيله، وفي الوقت ذاته يقوم البحث برفد ما تصبو إليه ودعمه وتعزيزه من برهنة للمرتكزات الفكرية التي تستند عليها، مثل المفاهيم، النصوص، والقضايا، والقوانين، أو نقض مرتكزات نظرية أخرى تختلف معها في الرؤية والمنهج، أو تحفز باحثين لاستدراك ما أغفلته في بعض من رؤاها، أو تشجع بعض الباحثين على تجسير فجوة حاصلة بينها وبين نظرية ثانية، وهذا ما حصل فعلا عند لويس كوسر في نظريته الوظيفة الايجابية للصراع الاجتماعي الذي جسر بين النظرية الصراعية والبنائية الوظيفية.

إن الارتباط الوثيق بين النظرية والبحث الامبريقي قد يكون وثيقا فكلاهما عنصر أساسي في عملية تراكم المعرفة ونمو العلم وتطوره، ولعل أشهر من حلل العلاقة المتبادلة بين البحث الامبريقي والنظرية الاجتماعية هو العالم روبرت ميرتون الذي أكد وجود علاقة وثيقة بين النظرية والبحث الميداني، كما يسجل كذلك من جانب آخر وجود تباعد وانقسام بين الأمرين، سواء من جهة التنظير وبالتالي الوصول إلى صياغة نظرية، أو من جهة ثانية القيام بالبحث امبريقيا والبحث للوصول إلى إبراز العلاقات القائمة والتدليل عليها. ولإبراز الدور الذي يؤديه البحث الامبريقي في إثراء وتطوير النظرية، وفي هذا المقال يمكننا أن نطرح التساؤلات الآتية: ما هي الأدوار التي يؤديها البحث الامبريقي في إثراء وتطوير النظرية الاجتماعية وخصوصا النظرية السوسيولوجية؟ وما هي علاقة النظرية بالبحث الأمبريقي؟ ما هي العلاقة الابستيمولوجية التبادلية بين النظرية والبحث الامبريقي؟

-أولا: بدايات الاتجاه الحقلي الامبريقي في مجال العلوم الاجتماعية:

لقد ارتبط علم الاجتماع في إحدى مراحل نموه بعد عصر النهضة الأوربية بالتاريخ لفترة، وظلت النزعة التاريخية تمارس تأثيرها على علم الاجتماع في ذلك الزمن، مما أدى إلى ظهور ما يسمى بالنزعة الأمبريقية، هذه الأخيرة التي تبدى للدارسين والمختصين أنها تتفق مع الموجة

الصناعية التي شهدتها بلدان القارة الأوربية في ذلك الوقت، وما أحدثته من تأثيرات وتغيرات اجتماعية وثقافية ساهمت في تشكيل روح المجتمع الرأسمالي الغربي. حيث كان الاهتمام كبيرا بجمع المعطيات والبيانات الميدانية الكمية والنوعية.

ويمكننا القول إن من المؤشرات الدالة على الحركية الابستيمولوجية لأي فرع علمي هو مدى ما يقدمه من مقاربات ومناهج ونظريات وآليات تساعد على وصف الواقع وتشخيص الظواهر وتقديم تفسيرات لها، هذا إضافة إلى ملاحظة ورصد أهم الظواهر المستجدة في ميدان ونطاق التفاعلات الاجتماعية، وإذا نظرنا إلى العلوم الاجتماعية بفروعها المختلفة، نجدها تعمل جاهدة لخلق ميادين بحث جديدة متبعة مناهج مستحدثة خصوصا في المجتمعات الغربية في فترة ما بعد الحداثة.

ونجد أن تراكم وتعقد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية يؤدي إلى حالة من الضبابية في صياغة نموذج علائقي سواء مع المجتمع وذاته، أو مع المجتمع والمجتمعات الأخرى، وهنا يمكننا أن نتساءل عن جدوى العلوم الاجتماعية وما تقوم به من أبحاث امبريقية وما توظفه من مناهج تستجيب لتقديم وصف ودراسة ومعرفة بالمشكلات.

إن طبيعة المعرفة العلمية تشتق من العلم كعمليات إدراكية تشكل مجتمعة نسقا إدراكيا، والعلم هو تلك المعرفة المنظمة التي توصل إليها الإنسان باستخدام أساليب أو مناهج معينة هي المناهج العلمية، ونتائج الأبحاث العلمية غالبا ما تكون تراكمية مما يزيد من عمليات الابتكار العلمي الذي يساعد الإنسان على تحقيق التعامل السليم مع بيئته الطبيعية.

وغالبا ما تميز العلم بوضوح الرؤى والأهداف والدقة والابتعاد عن المنحى الفلسفي في مناقشة القضايا والاتجاه نحو منحى التجريب في العلوم الطبيعية، وكذا التوجه امبريقيا في مجال العلوم الاجتماعية. والمعرفة العلمية سواء أكانت تستمد مصداقيتها من أطر نظرية أو لم تصل إلى مستوى النظرية، فإنها عموما تتميز بالملامح الآتية: تتميز المعرفة العلمية بأنها ذات طابع نسبي، وأنها ذات طابع موضوعي، كما أنه من خصائصها أنها ذات طابع تراكمي، كما أنها معرفة من الخارج أي أنها تدرك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية.

وحول البحث الاجتماعي يمكننا القول إن البحث الاجتماعي هو أحد آليات النظرية الاجتماعية التي بواسطتها تستطيع النظرية أن تبرهن على أحد أهدافها أو قضاياها، أو قوانينها التي تريد الوصول إليها في صياغتها، أو توسع من تعاميمها، أو تحول نصوصها إلى قضايا ناضجة أو مختمرة. وبتعبير آخر إذا غاب البحث الاجتماعي تفقد النظرية مصداقيتها وبرهانها، وتصميمها، لأن البحث هو المورد الرئيسي للأحداث الاجتماعية المبرهنة التي تعزز فروضها، ومفاهيمها، ونصوصها وقضاياها.[1]

ويرى بعض الباحثين أن علاقة النظرية بالبحث يكمن في أن الأولى تمد الثانية بطروحات ونصوص فكرية مبرهنة بشكل محدود إلا أنها تحتاج إلى براهين أوسع نطاقا وأعمق مما يحفز الباحث على استخدام آليات البحث، واستقصاء معلومات وبيانات تكشف عن مدى واقعية الأفكار والرؤى التي استجلبتها النظرية، وفي حالات أخرى تعمل النظرية عكس ما ذكرته آنفا – إنما مع نظرية أخرى وليس معها– أي أنها تحفز الباحث على استخدام آليات البحث لكي تنقض ما جاءت به نظرية ثانية من نتائج، أو أفكار أو رؤى، مثل تحفيز النظرية البنائية–الوظيفية لبعض الباحثين لدحض النظرية الصراعية لكارل ماركس، وجورج زيمل، ورالف دارندروف ونقضها.

وبلا شك أن من وظائف النظرية في مجال العلم توجيه العمليات الذهنية وكذا البحثية إلى القيام بعمليات اكتشاف وابتكار وإبداع جديدة، كما تؤدي كذلك إلى تنمية الملكات العقلية للباحثين خصوصا على مستوى الأبحاث النظرية والمجردة، وغالبا ما تساعد النظرية عملية التفكير والبحث للوصول إلى نتائج ذات فائدة في حياة الإنسان والمجتمع، وفي هذا الصدد يحضرنا قول خبير دراسة التنظيم بيتر درينكر" Peter Drunker" حيث يرى أنه ليس هناك أمر علمي وعملي يشابه نظرية علمية جيدة، فالنظرية التي يتم اعتمادها لها توجيهان الأول نحو ما يستوجب فعله، والآخر حول ما يمكننا فعله، وأفضل الطرق التي توصلنا إلى النجاح.

ثانيا: المعرفة العلمية والواقع:

لقد ساد اعتقاد ولفترة زمنية طويلة مفاده ثبات العالم الطبيعي وانتظامه، فكان المنظور التقليدي قائما على تصور يفيد بوجود موضوعات وعمليات معينة توجد في العالم الطبيعي، وجملة الحوادث التي تسجل حضورها وبأشكال مختلفة، ولكن وقوعها يكون بانتظام، كما أن هناك علاقات ثابتة ومحددة تقع بين هذه الأحداث، وجملة الأحداث والوقائع الممكنة الحدوث تشكل موضوعات اهتمام يعمل العلم على وصفها بدقة وتفصيل، كما يعمل الباحثون على محاولة شرحها وتقديم الأدلة والبراهين التي تثبت صحة أقوالهم واستنتاجاتهم.

ويمكننا القول إن المعرفة العلمية تعتمد على الملاحظة المنظمة للظواهر ومحاولة تفسيرها بالكشف عن القوانين التي تحكمها والتنبؤ بمستقبلها، إن التحليل المتعمق لطبيعة العلم يكشف عن أنه يتضمن بين طياته هدفا معينا ووسائل لتحقيق هذا الهدف، فغاية العلم هو تفسير الظواهر والتنبؤ بمستقبلها، وذلك عن طريق الكشف عن القوانين التي تحكم سير الظواهر، بهذا المعنى يحق لنا أن نقرر أن هدف العلم هو الوصول إلى النظرية، ويتميز العلم وما يرتبط به من معرفة علمية ببعض الخصائص المميزة أهمها الطابع النظري، الطابع المجرد، الطابع المنطقي، طابع النسق والنظام، الطابع التراكمي، الطابع الموضوعي، الطابع الامبريقي، الطابع التطبيقي.[2]

في مرحلة التنوير في أوربا تميز البحث الاجتماعي بمحاولة استكشاف الطبيعة الأساسية للإنسان، ثم أكثر أشكال البناء الاجتماعي ملائمة لدعم إمكانياته بما يجعل سلوكه ايجابيا في تشكيل واقعه المحيط، وبما يخلق إمكانية أن يكون ناتج العملية الاجتماعية التي أسسها لصالحه، غير أنه في أعقاب الثورة الفرنسية ظهرت الاتجاهات النظرية العامة" المثالية، الوضعية، النفعية، التجريبية" التي تميزت أنساقها النظرية من حيث طبيعة إدراكها للواقع ونظرتها إليه، وان استمر اهتمامها الأساسي مركزا حول الإنسان الذي يتحمل عبء العملية الاجتماعية، ومن هو الإنسان الذي ينبغي أن يستفيد من نتاجها، هل على الإنسان أن يواصل الثورة التي بدأت حتى يخلق البناء الذي يساعد على تفجير إمكاناته أو عليه أن يتوقف ليفرض النظام والاستقرار على الواقع الذي ينبغي أن يكون خاليا من الصراع والتناقض.[3]

ثالثا : مراحل ظهور وتطور مفهوم النظرية:

كان ظهور النظرية لأول مرة من خلال الأبحاث التطبيقية التي أجريت في مجال العلوم الطبيعية، وكانت قد ظهرت في بداية الأمر على شكل اصطلاحات أساسية، ثم طرأ أن بدأت تتحدد العلاقة في مرحلة لاحقة بين الوحدات الأساسية، وهو ما ساعد على استنباط والتوصل لبعض الاستنتاجات، وفي مرحلة ثالثة تطور الأمر إلى القدرة على إخضاع الاستنتاجات لعملية الملاحظة الواقعية.

ولما كان المجتمع الإنساني في تغير دائم فان المشكلات الاجتماعية دائمة الوقوع والحدوث، إن استمرارية تغير المجتمع الإنساني تعقبه استمرارية حدوث المشكلات الاجتماعية المتنوعة والمتعددة، وبناء على ذلك فان مهام علم الاجتماع لا تقتصر على دراسة التغيرات الاجتماعية "أسبابها، نتائجها" فحسب، بل تعقبها دراسة المشكلات الاجتماعية التي تحدثها هذه التغيرات ومعرفة أسبابها وآثارها.[4]

وصيغت مجموعة من التعريفات حول النظرية فهناك من يرى من علماء الاجتماع أن النظرية هي عبارة عن بناء متكامل يضم مجموعة تعريفات واقتراحات وقضايا عامة تتعلق بظاهرة معينة بحيث يمكن أن يستنبط منها منطقيا مجموعة من الفروض القابلة للاختيار، وهناك من عرفها على أنها بناء فرضي رمزي يتضمن مجموعة من القوانين المتسقة منطقيا فكل قانون يستنتج مباشرة من القانون السابق عليه والقانون يفسر الواقعة عن طريق ربطها بغيرها من الوقائع، ومعنى ذلك أن النظرية هي مجموعة قضايا واقعية تفسر الظواهر وتمكننا من التنبؤ وهذه القضايا تتخذ لها ترتيبا معينا بحيث تجيء القضايا العامة كمقدمات تستنتج منها باقي القضايا وهي ما يعرف بالنسق الاستنباطي وهو جوهر النظريات العلمية، ويرى آخرون أن بناء النظرية يتألف من

تعميمات مستخلصة من دراسة الوقائع ومرتبة داخل نسق منطقي يسمح باستنتاج إحداها من الأخرى وتصبح النظرية على هذا النحو أعلى درجات المعرفة.

أما حول بناء النظرية فيرى هيج Hage أنه توجد ستة عناصر أو مكونات أساسية تسهم في بناء النظرية، فبواسطة المفاهيم النظرية نرى رؤى جديدة فهي يمكن أن ينظر إليها على أنها العدسات الوصفية للنظرية فهي تجذب انتباهنا إلى الجوانب المهملة للعالم الاجتماعي، مثال ذلك مقالة ميرتون Merton الشهيرة عن مجموعة الأدوار، حيث فتحت هذه المقالة طريقا جديدا للتفكير عن الأدوار، ومثال آخر سابق عن مقولة ميرتون مناقشة زيمل Simmel عن الغريب، فالغريب نمط اجتماعي مألوف لنا جميعا ولكنه يهرب من دائرة اهتمامنا حتى نلصق إليه كلمة أو صفة.

إن تطوير بعض القضايا النظرية يعني أننا قد تحركنا من الوصف إلى التحليل، فبمجرد أن يرتبط مفهومان بطريقة ما فإننا يمكن أن نقوم بعمل تنبؤات وتفسيرات بالرغم من أنها يمكن أن تكون على مستوى ضعيف جدا، وربما نجد أن بعض من قوة وتأثير كتابات ماركس ترجع إلى كثير من الفروض المطمورة في صفحات قليلة في البيان الشيوعي، وعندما نقارن هذه الكتابات بأي عمل آخر في علم الاجتماع نجد الفارق الكبير في الخبرة التحليلية، لذا فانه من الأهمية بمكان قراءة الأعمال النظرية بهدف معرفة وإحصاء عدد القضايا النظرية بها. ومن الناحية العلمية تعتبر النظرية كاملة إذا احتوت على مفاهيم وتعريفات وقضايا وترابطات، ويعتبر تنظيم هذه الأجزاء تنظيما استقرائيا استنباطيا عملا هاما للغاية، إلا أن ذلك قد يتحقق على المدى الطويل نسبيا.(5)

رابعا: نماذج وأمثلة بحثية عن دور البحث الامبريقي في إثراء النظرية

تقوم النظرية بتنشيط البحث الاجتماعي وتفعيله، وفي الوقت ذاته يقوم البحث برفد ما تصبو إليه ودعمه وتعزيزه من برهنة للمرتكزات الفكرية التي تستند عليها، مثل المفاهيم، النصوص، والقضايا، والقوانين، أو نقض مرتكزات نظرية أخرى تختلف معها في الرؤية والمنهج، أو تحفز باحثين لاستدراك ما أغفلته في بعض من رؤاها، أو تشجع بعض الباحثين على تجسير فجوة حاصلة بينها وبين نظرية ثانية، وهذا ما حصل فعلا عند لويس كوسر في نظريته الوظيفة الايجابية للصراع الاجتماعي الذي جسر بين النظرية الصراعية والبنائية الوظيفية.(6)

وما يمكننا قوله حول تأثير البحث الامبريقي على النظرية نجد ما شاع بين جيل من الأنثربولوجيين – في النصف الثاني من القرن العشرين- الذين اشتغلوا عن الصيادين البدائيين، وجامعي الطعام والزراعيين الثيوليثيين،فكرة توليدية مؤداها أنه كلما زادت بدائية الإنسان كلما زاد ميله إلى العدوان.

ومن بين الأنثربولوجيين الذين يدعمون فكرة ارتباط الممارسة العنيفة بالحالة البدائية للإنسان

العالم واشيبرن الذي يرى أن الإنسان له سيكولوجية آكلة للحوم، ومن السهل أن يعلم الناس كيف يقتلون، ولكن من الصعب أن يطوروا أعرافا تتجنب القتل، ويتمتع العديد من البشر برؤية الكائنات البشرية الأخرى وهي تعاني، ويستمتعون بقتل الحيوانات، كما نجد أن عمليات ضرب عامة الناس وتعذيبهم يشيعان في العديد من الثقافات.(7)

وإذا كان واشيبرن قد زعم بأن العديد من الناس يستمتعون بالقتل والقسوة، فان هذا الرأي حقيقي حسب ما هو واقع، وكل ما يعنيه ذلك أن هناك أفرادا ساديين ومجتمعات سادية أو ثقافات سادية، ولكن بالمقابل هناك أفرادا وثقافات ليست سادية.

وهناك بعض الآراء المعارضة، مدعمة بالدليل والمعلومات المباشرة، تعارض فكرة ارتباط معدلات العنف بدرجة البدائية عند الإنسان، فهناك معلومات ومعطيات علمية مباشرة عن حياة إنسان ما قبل التاريخ – والتي توجد في عبادات الحيوان– والتي تشير إلى الحقيقة التي مؤداها أن الإنسان البدائي كان يفتقر إلى الروح التدميرية الذاتية، وحسبما اتضح فان رسومات الكهنة القبطية لحياة صيادي ما قبل التاريخ لم تبرز أي قتل بين البشر.(8)

وفي دراسة لمجموعة من الأنثربولوجيين، تم تحليل ثقافة 30 قبيلة بدائية من زاوية الروح العدوانية في مقابل النزعة السلمية، فوصفت روث بيندكت ثلاثة منهم سنة1934، بينما قامت مرغريت ميد بوصف ثلاثة عشرة ثقافة سنة 1961، كما قام ميردوك بوصف خمسة عشرة ثقافة سنة 1934، وقام باحث آخر بوصف ثقافة واحدة سنة 1965، ونجد أن تحليل هذه المجتمعات الثلاثين يسمح لنا بتمييز ثلاثة أنماط محددة بوضوح " أ،ب،ج" فهذه المجتمعات لا تتميز في ضوء العدوان أو غير العدوان ولكن في ضوء الأنساق الشخصية المختلفة والتي تميز كل واحد عن الآخر بعدد من السمات التي تشكل ثقافة متميزة والتي لا تربط بعضها بالعدوان بأي شكل .(9)

وبهذا يمكننا تمييز ثلاثة أنواع من المجتمعات:

أ-مجتمعات مدعمة أو مؤيدة للحياة:

وفي ظل هذا النسق، نجد أن التركيز الرئيسي للمثل والنظم والأعراف هو أنها تساهم في الحفاظ على الحياة ونموها في جميع أشكالها.

ب- المجتمعات العدوانية غير المدمرة:

وهذا النسق يشترك مع النسق الأول في العنصر الأساسي المتعلق بعدم التدمير ولكنه يختلف في أن الروح العدوانية والحرب رغم عدم مركزيتها، فهي تمثل أحداثا عادية طبيعية، وأن التنافس والتدرج الهرمي والنزعة الفردية موجودة، فهذه المجتمعات لا تتخللها روح التدمير أو القسوة أو شك مبالغ فيه، ولكنها لا تتمتع بنوع الأخلاق والثقة والذي يعتبر مميزا لمجتمعات النسق أ،

ونجد أن النسق ب، يمكن تمييزه من خلال القول إنه يسوده الاعتداء.

ج- المجتمعات المدمرة:

نجد أن بناء نسق المجتمعات ج يوصف بأنه متمايز، ويتميز بالكثير من العنف الشخصي وروح التدمير والعدوان والقسوة في داخل القبيلة وضد الآخرين، والشعور بالبهجة في الحرب والإيذاء والغدر، ونجد أن المناخ الكلي للحياة هو مناخ العداء والتوتر والخوف، كما يوجد الكثير من المنافسة وتركيز شديد على الملكية الخاصة، والتدرجات الهرمية الصارمة، وقدر كبير من إشعال الحرب.

وفي دراسة كاملة قامت بها روث بينديكت رفقة آخرين سنة 1934، لهنود الزونى ،فهؤلاء يعيشون على الزراعة وتربية القطعان في الولايات المتحدة الأمريكية في القطاع الجنوبي الغربي، ومن الناحية الاقتصادية فهم يعيشون حياة الوفرة، وتقديرهم للأمور المادية ليس كبيرا، والأفراد الذين يوصفون بالعدوانية وعدم التعاون والتنافس فيجري اعتبارهم كأنماط منحرفة، وبجري القيام بالعمل بشكل تعاوني أي يشترك فيه الرجال والنساء، باستثناء تربية الأغنام التي تعتبر مقتصرة على الرجل وحده، وبشكل عام فالانجاز الفردي يعطي له قليل من الاهتمام، وان كانت هناك بعض المشاجرات فهي تحدث نتيجة للغيرة الجنسية وليس فيما يتعلق بالأنشطة الاقتصادية أو الممتلكات(10).

وما يمكن أن نخلص إليه من خلال البحث الحقلي أو الميداني الأنثربولوجي لظاهرة العنف، هو أن المعلومات الأنثربولوجية قد أكدت أنه لا يمكننا الدفاع عن التفسير الغريزي للروح التدميرية ،وأنه في جميع الثقافات البشرية، فالفرد أو الجماعة تقوم بالدفاع ضد التهديدات والأخطار المحدقة بممارسة الحرب، كما لا يمكننا أن نأخذ مطلقا بالقاعدة التي تقول إن المجتمعات الأقل تطورا وتحضرا تتميز بروح تدميرية عكس المجتمعات الأكثر تطورا، وإنما نميل إلى الرأي القائل أن الروح التدميرية هي جزء من ثقافة الإنسان.

وفي دراسته الميدانية أو الإحصائية لظاهرة الانتحار توصل دوركايم إلى قاعدة أو قانون اجتماعي، مفاده أن الميل للانتحار يتناسب عكسيا مع درجة التكامل في الهيئة الدينية، ومع درجة التماسك في الأسرة ومع درجة التوحيد في الهيئة السياسية، فكلما قويت هذه الهيئات الثلاث: الدين، والأسرة، والدولة، واشتدت سلطتها على الأفراد الذين ينتمون إليها كلما قل عدد المنتحرين، ولكن إذا ضعف كيانها ووهنت سلطتها واضمحل نفوذها تحرر الأفراد من رقابتها، وانهار الشعور الجمعي في نفوسهم، وتغلبت الروح الفردية، ولا يجدون في أنفسهم أثرا للوازع الديني، أو العائلي، أو القومي، ومن ثم يتصرف الأفراد حسب إرادتهم الخاصة، وهنا يكثر

الانتحار، وتشتد موجته أي أن عدد المنتحرين يزداد كلما ضعفت الروابط واتجهت نحو التكامل، وقد أيد دوركايم هذا القانون بإحصاءات دقيقة أضفت عليه الصفة العلمية.[11]

ويرى إميل دوركايم أن استقرار العلاقات الاجتماعية وحتى التوازن الشخصي لأعضاء الجماعة الاجتماعية يعتمد على وجود بناء معياري يرتبط بالسلوك، وأن يكون هناك اتفاق وقبول عام لهذا البناء بحيث يكتسب سلطة أخلاقية بواسطة أعضاء الجماعة المحلية المنظمة، ويكون ملزما، بحيث تنظم هذه المعايير اختيار الفرد الوسائل التي يحقق بها أهدافه، كما تحدد إلى حد ما الأهداف والرغبات ذاتها.

ويرى بعض الباحثين أن المجتمعات البدائية والريفية غالبا ما تتميز بالانتظام والانسجام في ظروفها ومطالب أفرادها وأهدافهم، فتكون حياة الأفراد يطبعها الانسجام لا التعارض والصراع، عكس المجتمع الحضري حيث تتميز العلاقات الاجتماعية فيه بالصراع وعدم الانسجام والتجانس بين أفراده ورغباتهم، مما يؤدي إلى تضارب المصالح والصراع بين فئة الفقراء والأغنياء،وفئة الجاهلين وفئة المتعلمين، وفئة المتدينين وفئة الفاسقين، ويأتي السلوك الإجرامي–حسب هذه النظرية– كأثر لعامل عدم الانسجام الاجتماعي، أو التفكك الاجتماعي الذي يتخذ صورة تصارع القيم في المجتمعات المختلفة.

وفي إطار العلاقة بين البحث الامبريقي والنظرية ، نجد أن نظرية التعلم الاجتماعي تقوم على فكرة التقليد والمحاكاة كأساس لحدوث السلوك العنيف، حيث يلجأ الأطفال طبقا لهذه النظرية، إلى تقليد الكبار والتعلم منهم السلوك العنيف، ويحدث ذلك من خلال مواقف حقيقة في الحياة أو من خلال نماذج تبثهم عبر الأفلام وأجهزة التلفزيون[12]

ومن بين الأعمال والأبحاث الامبريقية التي زادت من صحة وصدق طروحات نظرية التعلم الاجتماعي ما قامت به اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ بالولايات المتحدة الأمريكية، التي تناولت انحراف الأحداث، فقامت بعدة مسوح لدراسة محتوى برامج التلفزيون، في سنة 1961 وفي سنة 1964 وأوضحت أن درجة تصوير العنف والأنشطة الأخرى المرتبطة به في التلفزيون تبقى أكبر مما كانت عليه منذ عقد مضى، وقد حذرت اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ من أن مثل هذا المحتوى لبرامج التلفزيون قد أحدث سلوكا مضادا للمجتمع بين الأحداث.

وكمثال ثان حول نظرية التفاعل الرمزي، فنجد أن هذه النظرية تقوم على فكرة الفعل الاجتماعي، وترى أن الفعل الإنساني سواء كان ذا طابع فردي أو جماعي، فهو ليس سلوكاً عشوائياً، وبالتالي فهو بعيد عما يسمونه "الفوضى" ذلك أن الحياة الاجتماعية ليست حلبة صراعية بطبيعتها الاجتماعية، أو مسرحاً حربياً مفتوحاً فيه يتصارع الكل ضد الكل، بل بالعكس، فهناك

مجموعة من القواعد التي يتحدد بموجبها النظام العام الذي يوجه سلوك الأفراد والجماعات.

وانطلاقاً من الفكرة السابقة يصبح الفاعل قادراً على التنبؤ بسلوكه والتحكم فيه، والتنبؤ كذلك بسلوك الآخر، ويرى بارسونز أن مكونات النظام العام والأسس التي يقوم عليها تكمن في المعايير والقيم، وأنساق الفعل، والأنماط الثقافية عموماً. وهذا الكل الثقافي يكتسب معنى سواء من قبل الفرد، أو الجماعة من خلال ما يؤديه من وظائف.

وقد كانت الأبحاث التي قام بها "تالكوت بارسونز،Talcot Parsons " حول الفعل الاجتماعي، من أكثر الدراسات بلورة وإيضاحاً لهذا المفهوم، حيث يرى بارسونز أن ضروب السلوك البشري التي تكون موجهة بمجموعة من المعاني، والتي يكونها الفاعل عن العالم والمحيط الخارجي، هي التي تكون ما يسمى ب "الفعل الاجتماعي"، وتبرز الخاصية الجوهرية للفعل الاجتماعي – حسب بارسونز– من خلال حساسية الفاعل لمعاني الأشياء، ومدى إدراكه لهذه المعاني، ودوره تجاه المؤثرات التي تنقلها، والفاعل في نظر بارسونز هوكائن يعيش موقفاً معيناً لا بد من فعله، وما هو إلا نتاج لإدراكه لمركب من الإشارات التي يتلقاها من بيئته ويستجيب لها.(13)

ويعتبر صموئيل ستوفر stuffer أول من استخدم مفهوم الحرمان النسبي في علم الاجتماع، وذلك في كتابه الجندي الأمريكي عام 1949، ثم تطور بعد ذلك المفهوم على يد روبرت ميرتون في كتابه النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي، والذي صدر عام 1961، فقام بضبطه وأعطاه معنى دقيقاً وربطه بنظرية سلوك الجماعة المرجعية، فالفرد يرى أنه حاز وامتلك بعض الامتيازات، وإما يجد نفسه محروماً، ولذا أبرز ميرتون مفهوم الإشباع النسبي من خلال مقارنة موقفهم بموقف فئات الأشخاص والجماعات الأخرى.(14)

وكانت نظرية الثقافة الفرعية قد ظهرت نتيجة القيام بأبحاث امبريقية و محاولة تفسير ارتفاع معدلات الانحراف بين الأفراد الذكور الذين ينتمون للطبقات الدنيا، والذين كانوا يشكلون عصابات مسلحة شملت المراهقين بدرجة أكبر، ومن الأسباب الرئيسة لظهور الثقافة الفرعية للجانحين خصوصاً هو أنها ظهرت كاستجابة للمشكلات الاجتماعية التي لا يستطيع الأفراد مواجهتها، وكان ألبرت كوهن قد أصدر كتابه "الأولاد المنحرفون" عام 1955، وتوصل إلى أن الثقافات الفرعية الانحرافية تتكون حول مشكلات المكانة عند المراهقين، خاصة في ظل غياب تكافؤ الفرص المتاحة.

خامسا: علاقة النظرية بالبحث الأمبريقي:

يرى بعض الباحثين أن علاقة النظرية بالبحث يكمن في أن الأولى تمد الثانية بطروحات ونصوص فكرية مبرهنة بشكل محدود إلا أنها تحتاج إلى براهين أوسع نطاقا وأعمق مما يحفز

الباحث على استخدام آليات البحث، واستقصاء معلومات وبيانات تكشف عن مدى واقعية الأفكار والرؤى التي استجلبتها النظرية، وفي حالات أخرى تعمل النظرية عكس ما ذكرته آنفا – إنما مع نظرية أخرى وليس معها– أي أنها تحفز الباحث على استخدام آليات البحث لكي تنقض ما جاءت به نظرية ثانية من نتائج، أو أفكار أو رؤى، مثل تحفيز النظرية البنائية–الوظيفية لبعض الباحثين لدحض النظرية الصراعية لكارل ماركس، وجورج زيمل، ورالف دارندروف ونقضها، وما جاءت به قضايا وقوانين صراعية تعتبرها النظرية البنائية الوظيفية حالة مرضية في المجتمع، هذا العمل البحثي النقدي ترجع ايجابيته إلى النظرية البنائية الوظيفية.(15)

ويرى Drek Layder أنه لو كان البحث الاجتماعي يتعلق بالتجميع المنظم للشواهد والمادة العلمية، فان التنظير حينئذ يعد بمثابة محاولة لتنظيم هذه المادة في صورة إطار من الأطر التفسيرية، ولهذا يتناول التنظير أسئلة تتعلق بكيف ولماذا تظهر أنماط بعينها من الشواهد، وكيف يعكس ذلك تنظيم المجتمع والحياة الاجتماعية بصورة أكثر عمومية، فكل من التنظير والبحث الاجتماعي يشير بذاته إلى نطاق شديد السعة والتنوع من الممارسات في الوقت الذي تتنوع فيه بنفس القدر وتتعقد طرق الارتباط بينهما، إلى حد أن أي محاولة لتقديم أي وصف للعلاقات بينهما تثير مشاكل هائلة.(16)

وفي ذات السياق يذكر أن الثنائية بين البحوث التي تسعى إلى التنظير كهدف أساسي، وبين البحوث التي تركز اهتمامها على جمع المادة الامبريقية يعني ضمنا أن بعض البحوث تكون أقرب إلى أحد طرفي المتصل من الطرف الآخر، وهذا صحيح إلى حد ما، وان كان يجب أن نتذكر أن أغلب البحوث تمثل خليطا من الاتجاهين، ومع ذلك لا يشير الفصل بينهما إلى تباين حقيقي في محور الاهتمام الذي قد يكون هو الأكثر أهمية إذا وضعنا في الاعتبار قضية التنظير في البحث الاجتماعي، وهذا المحور في ذاته يمكن تقسيمه إلى محاور أخرى فرعية، وأحد تلك الاهتمامات هو ما إذا كان البحث ينكر النظرية صراحة أو يقلل من قيمتها بمقارنته بالبحوث التي ترتبط أولوياتها وأهدافها ارتباطا أكبر باهتمامات أخرى مثل "جمع البيانات".(17)

سادسا: العلاقة الابستيمولوجية التبادلية بين النظرية والبحث الامبريقي:

تمارس النظرية تأثيرا ملزما على البحث وهو تحديد أو طرح المشكلات التي تحتاج إلى بحث، ليس هذا فحسب بل تقود البحث إلى التأكيد على قوة العلاقة بين المتغيرات، فضلا عن إرشادها لنتائج بحوث الباحثين نحو اختبار قوانينها أو قضاياها، وفي الوقت ذاته تقدم مقترحات حول وجود مشكلات اجتماعية مستحدثة تتطلب صياغة مشروعات لنظرية جديدة، وهكذا تتلاقى وتتفاعل النظرية مع البحث، وبالعكس البحث مع النظرية لأن الحقيقة الميدانية لا يمكن

استكشافها إلا بهذا السياق، وبناء على ما تقدم فانه لا تكون جدوى للنظرية ما لم تدعم من قبل بالبحوث الاجتماعية، ولا تكون فائدة كبيرة للبحوث ما لم تطعم بإطار نظري، لأن العلاقة بينهما متفاعلة بشكل جدلي، ولما كان علم الاجتماع علما تطبيقيا فان هذه العلاقة-الجدلية مهمة وأساسية لأنها تجسر البحوث الاجتماعية بنظرياته، ولأن الجانب النظري في هذا العلم يكون مستخلصا من الجانب العلمي، والأخير يغذي الأول، فالعلاقة بينهما أشبه بعلاقة البيضة بالدجاجة.[18]

إن الارتباط الوثيق بين النظرية والبحث الامبريقي قد يكون وثيقا فكلاهما عنصر أساسي في عملية تراكم المعرفة ونمو العلم وتطوره، ولعل أشهر من حلل العلاقة المتبادلة بين البحث الامبريقي والنظرية الاجتماعية هو العالم روبرت ميرتون الذي أكد وجود علاقة وثيقة بين النظرية والبحث الميداني، كما يسجل كذلك من جانب آخر وجود تباعد وانقسام بين الأمرين، سواء من جهة التنظير وبالتالي الوصول إلى صياغة نظرية، أو من جهة ثانية القيام بالبحث امبريقيا والبحث للوصول إلى إبراز العلاقات القائمة والتدليل عليها. وهذا التباعد المذكور قد يؤثر سلبا من خلال بروز ثغرات بحثية ونقاط ضعف سواء في جانب النظرية، أو البحث الامبريقي.

وكان روبرت ميرتون قد قدم مقترحا يتضمن مجموعة من الخطوات للتجسير بل لتحقيق نوع من الدمج بين النظرية والبحث الامبريقي، حيث يضمن مقترحه الخطوات الآتية[19]:

-ذكر الفرضيات بشكل واضح في تصميم البحث الامبريقي إضافة إلى توضيح التراث النظري الذي استمدت منه هذه الفرضيات.

-عند إتمام اختبار هذه الفرضيات يجب أن تناقش بربطها بالتراث النظري الذي استمدت منه مع ذكر جوانب هذا التراث الذي يدعم من قبل الفرضيات، والجوانب الأخرى التي لا تدعم.

-اشتقاق المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في صياغة الفرضيات من تراث نظري معين، وهو ذلك التراث الذي يرتبط به موضوع البحث.

-التفسيرات النظرية الجديدة التي تقدم نتيجة للأدلة والنتائج الامبريقية الجديدة، وبخاصة المتعلقة بعلاقات غير متوقعة بين المتغيرات يجب أن تبرز بشكل يؤدي إلى اقتراح تعديلات في نظريات قائمة، ويؤدي إلى مزيد من الأبحاث الامبريقية المتعمقة لتقديم مزيد من النتائج والأدلة حول هذه العلاقات بين المتغيرات.

-في خاتمة الدراسة يمكن تقديم ملخص مكثف للنتائج وعلاقتها بالفرضيات المتضمنة في البحث، ويمكن أيضا تقديم إشارات صريحة إلى الجوانب والتغيرات التي يمكن الاهتمام بها من قبل الباحثين، بالإضافة إلى صياغة التلميحات والشكوك على شكل اقتراحات محددة بما يؤدي إلى سلسلة من الأبحاث التي تعمل على التعمق في هذه الاقتراحات، وينتج عن ذلك تطوير

قضايا تفسيرية أكثر دقة عما قبل.

الخاتمة

في ختام هذا المقال يمكننا القول أن البحث الامبريقي يؤدي أدوارا هامة في إثراء وتطوير النظرية، بل وحتى التوصل إلى صياغة نظريات جديدة، وهذا ما حصل مع الكثير من مدارس الأنثروبولوجيا و السوسيولوجيا في العالم الغربي، غير أن أزمة العلوم الاجتماعية عموما وعلم الاجتماع بالخصوص في الجزائر أثرت سلبا على البحث الامبريقي. مما أثر سلبا على نمو النظرية السوسيولوجية حول الثقافة والإنسان والمجتمع في الجزائر.

وعوضا عن نمو علوم اجتماعية تخدم المجتمع والدولة، وتسهم في حل المشكلات القائمة، نجد أنها تتحول باتجاه العزلة والتقوقع، مما يستدعي ضرورة تشخيص وتوصيف الخصائص العامة المعوقة للبحث في العلوم الاجتماعية التي تسهم في إفقارها ومنعها من تأدية رسالتها العلمية والتنموية.

الهوامش والمراجع:

1. معن خليل عمر: مناهج البحث في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004 ، ص45.
2. السيد عبد العاطي السيد: علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص12، ص16.
3. علي ليلة: النظرية الاجتماعية المعاصرة، دار المعارف، مصر، 1991، ص37.
4. معن خليل عمر: المرجع السابق ، ص28.
5. عدلي أبو طاحون: النظريات الاجتماعية المعاصرة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، (د.ت) ص11
6. معن خليل عمر: المرجع السابق، ص46.
7. محمد عبده محجوب وآخر: العنف السياسي والاجتماعي، قراءات ودراسات أنثريولوجية، دار الثقافة العلمية، ط1، الإسكندرية، 2005، ص13،ص14.
8. محمد عبده محجوب وآخر: نفس المرجع، ص16،ص17.
9. محمد عبده محجوب وآخر: نفس المرجع، ص25.
10. محمد عبده محجوب وآخر: : نفس المرجع، ص28.
11. سامية مصطفى الخشاب: تاريخ الفكر الاجتماعي، جامعة القاهرة، القاهرة 2001،ص377.
12. محمد الجوهري وآخرون: المشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،ط1 ، 1995 ، ص79.
13. طلعت إبراهيم لطفي: التنشئة الاجتماعية وسلوك العنف، المؤتمر العلمي السادس للممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية، جامعة القاهرة، القاهرة، 1993،ص287.
14. عبد الهادي الجوهري: علم اجتماع الإدارة، دار المعارف، القاهرة،1983،ص88.
15. معن خليل عمر: المرجع السابق، ص45، ص46.
16. ديرك لايدر: قضايا التنظير في البحث الاجتماعي، ترجمة عدلي السمري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000،ص58.

17. ديرك لايدر : نفس المرجع ،ص59.
18. معن خليل عمر: المرجع السابق، ص47.
19. مجد الدين عمر خيري خمش: علم الاجتماع الموضوع والمنهج، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص327، ص328.

Field research And its role in enriching and developing the scientific theory The cases of anthropology and sociology

Dr. Mokhtar RAHAB *

Abstract:

The functions of theory in the field of science is to direct the mental and research operations to conduct discovery, innovation and new creativity, It also lead to develop mental faculty to the researchers, the link between theory and empirical research may be linked both are an essential element in the accumulation of knowledge and the growth of science and its development process. Spacing and split between the two may happen in some areas and times.

Key words: Field research, scientific theory, anthropology, sociology.

*Maître de conférence – Département de sociologie - Université de Msila - Algérie.